شبهات إبليس السبع التي أوردها الرازي والنيسابوري وابن عجيبة والرد عليها

دكتور/ عبدالعزيز بن جمال النعيم
الأستاذ المساعد بقسم الدراسات الإسلامية
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك فيصل

المستلخص:

يتناول البحث: شبهات إبليس السبع التي أوردها الرازي والنيسابوري وابن عجيبة والرد عليها، ويهدف البحث إلى بيان شبهات إبليس السبع، والمصادر التي أثبتتها، التعريف بهذه الشبهات، وكيفية انتقالها إلى التراث الإسلامي؛ وكتب التفسير، تنبيه الباحثين والدارسين بخطورة هذه الشبهات، وتأثيرها في ظهور الانحرافات الفكرية في أكثر الأديان والملل، بيان ردود كلٍّ من: الرازي، والنيسابوري، وابن عجيبة، على شبهات إبليس السبع، ومناقشة ردودهم عليها بموضوعية واختصار، ثم ختمت بحثي بعدد من النتائج التي توصلت إليها من أبرزها أن الشبهات الإبليسية السبع لها تأثير كبير في ظهور الانحرافات الفكرية في أكثر الأديان والملل، قديماً وحديثاً، مما يوجب التوقف عندها؛ ومناقشتها؛ والرد عليها، وأيضاً خطورة هذه الشبهات، وتأثيرها في ظهور الانحرافات الفكرية، والشبهات العقدية، مما يدعو الباحثين والدارسين للاهتمام بها، بمزيد من البحث والدراسة، ومن التوصيات التي أوصي بها التوصية بطباعة الرسائل العلمية والكتب التي ألفت الرد على الشبهات في القرآن أو السنة، وتكوين لجان متخصصة من العلماء والمفكرين في الدول الإسلامية لرصد الشبهات المثارة حول القرآن والتصدي لها، ونقضها والرد عليها رداً علمياً مؤصلاً.

الكلمات المفتاحية: (إبليس– ابن عجيبة – الرازي – النيسابوري – الشبهات السبع).

Abstract:

The research deals with the seven suspicions of Satan mentioned by Al-Razi, Al-Nisaburi, and Ibn Ajiba and the responses to them, and the research aims to clarify the seven suspicions of Satan, the sources that proved them, the definition of these suspicions, and how they relate to the Islamic heritage, the interpretation books, alerting researchers and scholars of the seriousness of these suspicions as well as their impact on the emergence of intellectual deviations in the majority of religions and sects. Then I concluded my research with a number of results, the most prominent of which is that the seven Satanic suspicions have a great impact on the emergence of intellectual deviations in most religions and sects, ancient and modern, which requires stopping at them, discussing them, responding to them, as well as the seriousness of these suspicions, and its impact on the emergence of intellectual deviations and doctrinal suspicions, which calls on the researchers and scholars to pay attention to them, with more research and study, and one of my the recommendations is to print scientific theses and books that were composed in response to suspicions in the Qur'an or Sunnah, forming specialized committees of scholars and intellectuals in Islamic countries to monitor, address, refute and respond to the suspicions raised about the Qur'an.

Keywords: Satan - Ibn Ajiba - Al-Razi - Al-Nisaburi - The Seven Suspicions.

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله، وصحبه، ومن والاه، أما بعد:

فإن الرَّدَّ على شبهات الكافرين، واعتراضات الملحدين، التي يثيرونها حول الإيمان والتوحيد؛ من أعظم مقاصد التأليف، وأهم دوافع التصنيف، لأن حفظ التوحيد، وحراسة العقيدة؛ من أوجب الواجبات، واقدس الطاعات، وأولى الأولويات، التي تقع على عاتق العلماء، وطلاب العلم، فإن الله تعالى قد جعل أهل العلم شهداء على توحيده، كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وإن أهم وأقدم الشبهات التي أثيرت حول الإيمان والتوحيد؛ "شبهات إبليس السبع"، التي أثارها بعد رفضه للسجود لآدم عليه السلام، وهي مذكورة في "التوراة"، و"الإنجيل"؛ أو ما يعرف بـ"العهد القديم"، و"العهد الجديد"، على شكل مناظرة وقعت بينه وبين الملائكة، عقب رفضه للسجود لآدم عليه السلام، وقد نقلها الشهرستاني (ت: ٥٤٨هـ) "المِلَل والنِّحَل"، عن شرح "الأناجيل الأربعة"، وهو أول من نقلها عنهم من علماء المسلمين، ثم نقلها بعض المفسرين في تفاسيرهم، مثل: الفخر الرازي، ثم النيسابوري، ثم ابن عجيبة، مما حدى بالباحث إلى دراسة هذا الموضوع الهام، في بحثه هذا؛ الموسوم بـ" **شبهات إبليس السبع التي أوردها الرازي، والنيسابوري، وابن عجيبة، والرَّدُّ عليها**".

ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد، وأن يجعل هذا البحث خالصاً لوجهه الكريم، وينفع به الإسلام والمسلمين، ويغفر لنا ولمشايخنا في الدين، والحمد لله رب العالمين..

أهمية الموضوع: يَستمد الموضوع أهميته مما يلي:

١) يبرز دور علماء الأمة عبر العصور المختلفة في الدفاع عن الإسلام، ودرء الشبهات والأباطيل المثارة حوله.

٢) يُفيد الباحثين الذين يتصدون للانتصار للإسلام والرد على تلك الشبهات والمقولات الباطلة؛ التي تعد من أهم الشبهات وأقدمها.

٣) يتناول البحث هذا الموضوع الهام ويناقشه للمرة الأولى، حيث أنه لم يسبق دراسته من قبل بشكل مستقل.

٤) تأثير الشبهات الإبليسية السبع في ظهور الانحرافات الفكرية في أكثر الأديان والملل، مما يوجب التوقف عندها؛ ومناقشتها؛ والرد عليها.

٥) بيان اهتمام علماء التفسير بمناقشة الشبهات والرد عليها، وعدم الاقتصار على التفسير المجرد للقرآن الكريم.
٦) حاجة المكتبة الإسلامية إلى بحث علمي مستقل يرد على مثل هذه الشبهات.

أسباب اختيار الموضوع:

١) لأهمية الموضوع الذي أشرت إليها سابقاً.
٢) إسهاماً في خدمة كتاب الله تعالى، بالجديد من الأبحاث المتعلقة بتفسيره وسائر علومه.
٣) رغبةً في الإسهام في بيان ردود المفسرين على الشبهات ومناقشتها.
٤) كون الموضوع الذي يتناوله البحث موضوعاً جديداً، وفريداً في بابه، لكونه يناقشه للمرة الأولى، حيث أنه لم يسبق دراسته من قبل بشكل مستقل.
٥) عدم تصدي الباحثين في التفسير وعلوم القرآن لتناول هذا الموضوع من قبل، رغم إيراد بعض المفسرين له بشكل مختصر جداً.
٦) الرغبة في رفد المكتبة الإسلامية للتفسير وعلوم القرآن بكل جديد من الأبحاث والدراسات المتعلقة بهذا المجال الهام.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى الآتي:

١) بيان شبهات إبليس السبع، والمصادر التي أثبتتها.
٢) التعريف بهذه الشبهات، وكيفية انتقالها إلى التراث الإسلامي؛ وكتب التفسير.
٣) تنبيه الباحثين والدارسين بخطورة هذه الشبهات، وتأثيرها في ظهور الانحرافات الفكرية في أكثر الأديان والملل.
٤) إبراز جهود المفسرين في إيراد شبهات إبليس السبع، ودورهم في الرد عليها.
٥) بيان ردود كلٍّ من: الرازي، والنيسابوري، وابن عجيبة، على شبهات إبليس السبع، ومناقشة ردودهم عليها بموضوعية واختصار.
٦) استقصاء ردود سائر علماء المسلمين؛ الذين تصدوا للرد على شبهات إبليس السبع؛ أمثال: الشهرستاني، وابن القيم، لتعم بها الفائدة.

منهج البحث:

المنهج المتبع في البحث هو (المنهج التاريخي، والتحليلي).
وسأتبع في كتابتي لهذا البحث الخطوات التالية:

١) كتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني، وعزوها بذكر اسم السورة ورقم الآية في المتن.
٢) عزو الأحاديث والآثار إلى مصادرها.
٣) تخريج الأحاديث الواردة، فإن كانت في الصحيحين؛ اكتفيت بورودها فيهما أو في أحدهما، وإن لم تكن في أحدهما؛ ذكرتها والحكم.
٤) توثق النصوص المنقولة من مصادرها.
٥) توثيق القراءات من مصادرها المعتمدة، مع نسبتها لأصحابها.
٦) ذكر النتائج والتوصيات في الخاتمة.
٧) ختم البحث بالفهارس المهمة مرتبة.

هيكل البحث:

تتكون خطة هذا البحث من مقدمة، وسبعة مباحث، وخاتمة، وفهرس.

المقدمة: وتشتمل على: أهمية الموضوع، وأهداف البحث، ومنهج البحث، وهيكل البحث.

المبحث الأول: مصادر إثبات شبهات إبليس السبع.

المبحث الثاني: إخبار القرآن عن كفر إبليس وشبهته، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: إخبار القرآن عن كفر إبليس.

المطلب الثاني: إخبار القرآن عن شبهات إبليس.

المبحث الثالث: رد الشهرستاني على شبهات إبليس السبع.

المبحث الرابع: رد الرازي على شبهات إبليس السبع، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: رد الرازي على شبهات إبليس السبع.

المطلب الثاني: مناقشة رد الرازي على شبهات إبليس السبع.

المبحث الخامس: رد النيسابوري على شبهات إبليس السبع، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: رد النيسابوري على شبهات إبليس السبع.

المطلب الثاني: مناقشة رد النيسابوري على شبهات إبليس السبع.

المبحث السادس: رد ابن عجيبة على شبهات إبليس السبع، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: رد ابن عجيبة على شبهات إبليس السبع.

المطلب الثاني: مناقشة رد ابن عجيبة على شبهات إبليس السبع.

المبحث السابع: رد ابن القيم على شبهة خلق إبليس وإنظاره، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: رد ابن القيم على شبهة خلق إبليس وإنظاره.

المطلب الثاني: رد ابن القيم على شبهة إبقاء إبليس وإنظاره.

الخاتمة : وفيها أهم النتائج، وأبرز التوصيات التي أخلص إليها في هذا البحث.

فهرس المصادر والمراجع.

المبحث الأول: مصادر إثبات شبهات إبليس السبع، وفيه خمسة مطالب :

تعتبر شبهات إبليس السبع أول الشبهات التي أثيرت في تاريخ الخليقة، وقد أثارها اللعين عقب رفضه للسجود لآدم عليه السلام، فلما سأله الله تعالى عن سبب امتناعه عن السجود؛ أجاب بأنه خيرٌ منه؛ لكونه خلق من نار؛ وآدم خلق من طين، وكذلك احتج بالقدر السابق، وقال: ﴿رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٣٩]، كما ورد في القرآن الكريم، وهما من أهم شبهاته التي أثارها، وفي الكتب السابقة: "التوراة"، و"الإنجيل"؛ أن الملائكة سألته عن سبب امتناعه عن السجود؛ فأجابهم بإيراد سبع شبهات، ولذلك سنذكر أهم المصادر التي أثبتت هذه الشبهات السبع بالتفصيل، وهي كما يلي:

المطلب الأول : المصدر الأول: "التوراة"، و"الإنجيل":

وتعد "التوراة"، و"الإنجيل"؛ أو ما يعرف بـ"العهد القديم"، و"العهد الجديد"، أقدم المصادر التي أثبتت شبهات إبليس السبع، حيث ورد فيها: أن الملائكة سألته عن سبب امتناعه عن السجود؛ فأجابهم بإيراد هذه السبع الشبهات، وهي مذكورة في هذه الكتب؛ على شكل مناظرة وقعت بينه وبين الملائكة، عقب رفضه للسجود لآدم عليه السلام.

وقد حكاها الشهرستاني (ت: ٥٤٨هـ) عن القس (ماري)، شارح "الأناجيل الأربعة"، كما سيأتي، وهو أول من نقلها عنهم من علماء المسلمين(١).

المطلب الثاني: المصدر الثاني: "المِلَل والنِّحَل"، للشهرستاني (ت: ٥٤٨هـ):

يعتبر الإمام محمد بن عبد الكريم الشهرستاني؛ المتوفى سنة ٥٤٨هـ؛ أول من نقل شبهات إبليس السبع؛ عن (ماري) شارح "الأناجيل الأربعة"، وأوردها في كتابه "المِلَل والنِّحَل"، ونقلها عنه الفخر الرازي، وغيره.

يقول الشهرستاني في كتابه "المِلَل والنِّحَل"؛ عن هذه الشبهات: "اعلم أن أول شبهة وقعت في الخليقة: شبهة إبليس لعنه الله، ومصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النص، واختياره الهوى في معارضة الأمر، واستكباره بالمادة التي خلق منها وهي النار على مادة آدم عليه السلام وهي الطين.

وانشعبت من هذه الشبهة سبع شبهات، وسارت في الخليقة، وسرت في أذهان الناس حتى صارت مذاهب بدعة وضلالة، وتلك الشبهات مسطورة في "شرح الأناجيل

(١) ينظر: المِلَل والنِّحَل، للشهرستاني، (١/ ١٤-١٦)، مفاتيح الغيب للرازي (٢/ ٤٤٧).

الأربعة": "إنجيل لوقا"، و"مارقس"، و"يوحنا"، و"مَتَّى"، ومذكورة في "التوراة"؛ متفرقة على شكل مناظرات بينه وبين الملائكة، بعد الأمر بالسجود، والامتناع منه.

قال كما نقل عنه: إني سلمت أن الباري تعالى إلهي وإله الخلق، عالم قادر، ولا يسأل عن قدرته ومشيئته، وأنه مهما أراد شيئا قال له: كن فيكون، وهو حكيم، إلا أنه يتوجه على مساق حكمته أسئلة، قالت الملائكة: ما هي؟ وكم هي؟ قال لعنه الله: سبعة.

الأول: أنه قد علم قبل خلقي أي شيء يصدر عني ويحصل مني، فَلِمَ خلقني أولاً؟ وما الحكمة في خلقه إياي؟ والثاني: إذ خلقني على مقتضى إرادته ومشيئته؛ فَلِمَ كلفني بمعرفته وطاعته؟ وما الحكمة في هذا التكليف بعد أن لا ينتفع بطاعة، ولا يتضرر بمعصية؟

والثالث: إذ خلقني وكلفني فالتزمت تكليفه بالمعرفة والطاعة فعرفت وأطعت، فَلِمَ كلفني بطاعة آدم والسجود له؟ وما الحكمة في هذا التكليف على الخصوص بعد أن لا يزيد ذلك في معرفتي وطاعتي إياه؟

والرابع: إذ خلقني وكلفني على الإطلاق، وكلفني بهذا التكليف على الخصوص، فإذا لم أسجد لآدم، فَلِمَ لعنني وأخرجني من الجنة؟ وما الحكمة في ذلك بعد أن لم أرتكب قبيحاً إلا قولي: لا أسجد إلا لك؟

والخامس: إذ خلقني وكلفني مطلقا، وخصوصا؛ فلم أطع؛ فلعنني وطردني، فَلِمَ طرقني إلى آدم حتى دخلت الجنة ثانياً، وغررته بوسوستي، فأكل من الشجرة المنهي عنها، وأخرجه من الجنة معي؟ وما الحكمة في ذلك بعد أن لو منعني من دخول الجنة لاستراح مني آدم، وبقي خالدا فيها؟

والسادس: إذ خلقني وكلفني عموما، وخصوصا، ولعنني، ثم طرقني إلى الجنة، وكانت الخصومة بيني وبين آدم؛ فلم سلطني على أولاده حتى أراهم من حيث لا يروننني، وتؤثر فيهم وسوستي ولا يؤثر في حولهم وقوتهم، وقدرتهم واستطاعتهم؟ وما الحكمة في ذلك؛ بعد أن لو خلقهم على الفطرة دون من يجتالهم عنها؛ فيعيشوا طاهرين سامعين مطيعين؛ كان أحرى بهم، وأليق بالحكمة؟

والسابع: سلمت هذا كله: خلقني وكلفني مطلقا ومقيدا، وإذ لم أطع لعنني وطردني؛ وإذ أردت دخول الجنة مكنني وطرقني، وإذ عملت عملي أخرجني ثم سلطني على بني آدم، فَلِمَ إذ استمهلته أمهلني، فقلت: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾.

وما الحكمة في ذلك بعد أن لو أهلكني في الحال استراح آدم والخلق مني، وما بقي شرٌّ في العالم؟ أليس بقاء العالم على نظام الخير خيراً من امتزاجه بالشر؟! قال: فهذه حجتي على ما ادعيته في كل مسألة.

قال شارح الإنجيل: "فأوحى الله تعالى إلى الملائكة عليهم السلام، قولوا له: إنك في تسليمك الأول أني إلهك وإله الخلق غير صادق ولا مخلص، إذ لو صدقت أني إله العالمين ما احتكمت علي بلم، فأنا الله الذي لا إله إلا أنا، لا أسأل عما أفعل، والخلق مسئولون". وهذا الذي ذكرته مذكور في التوراة، ومسطور في الإنجيل على الوجه الذي ذكرته"[1].

المطلب الثالث: المصدر الثالث: تفسير الفخر الرازي (ت:٦٠٦هـ):

يقول الفخر الرازي (ت:٦٠٦هـ)؛ نقلاً عن الشهرستاني: "حكى محمد بن عبد الكريم الشهرستاني؛ في أول كتابه المسمى "المِلَل والنِّحَل"؛ عن (ماري) شارح "الأناجيل الأربعة"، وهي مذكورة في "التوراة"؛ متفرقة على شكل مناظرة بينه وبين الملائكة، بعد الأمر بالسجود؛ قال إبليس للملائكة: إني أسلم أن لي إلها هو خالقي، وموجدي، وهو خالق الخلق، لكن لي على حكمة الله تعالى أسئلة سبعة، ..."[2].

المطلب الرابع : المصدر الرابع: تفسير النيسابوري (غرائب القرآن):

يقول نظام الأعرج النيسابوري (ت:٨٥٠هـ) في تفسيره "غرائب القرآن ورغائب الفرقان"؛ عن كفر إبليس: "وللعقلاء هاهنا قولان: أحدهما أن إبليس حين اشتغاله بالعبادة كان منافقا كافرا، أما عند من يمنع الإحباط فلأن ختمه لما كان على الكفر علم أنه ما كان مؤمنا قط. وأما عند غيرهم فلما حكاه الشهرستاني في أول "المِلَل والنِّحَل" عن شارح "الأناجيل الأربعة"، على شبه مناظرة بين إبليس والملائكة بعد الأمر بالسجود"[3].

المطلب الخامس : المصدر الخامس: تفسير ابن عجيبة "البحر المديد":

يقول ابن عجيبة (ت:١٢٢٤هـ)؛ في تفسيره "البحر المديد في تفسير القرآن المجيد"، نقلاً عن الفخر الرازي، "ذكر الفخر الرازي، في تفسيره، عن الشهرستاني أن إبليس جرت بينه وبين الملائكة مناظرة بعد الأمر بالسجود لآدم، فقال لهم: إني أسلم أن الله خالقي وموجدي، وهو موجد الخلق، ولكن لي على حكمته أسئلة: ..." [4].

(١) المِلَل والنِّحَل، للشهرستاني، (١/ ١٤-١٦).

(٢) مفاتيح الغيب للرازي، (٢/ ٤٤٧).

(٣) تفسير النيسابوري (١/ ٢٥١).

(٤) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة، (٢/ ٢٠٣).

المبحث الثاني: إخبار القرآن عن كفر إبليس وشبهته، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: إخبار القرآن عن كفر إبليس.

لقد أخبر القرآن الكريم عن كفر إبليس، ورفضه للسجود لآدم عليه السلام، وقد كان الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، وكان إبليس حينها يعد من جملتهم، فعصى إبليس أمر ربه، واعترض على حكمه، وجادل بالباطل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف:١١]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء:٦١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف:٥٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [طه:١١٦].

وقد كان إبليس من الملائكة بفعله لا بجنسه، فإنما بلغ بتعبده درجة الملائكة، ولم يكن منهم في الأصل، فخانه أصله فنكص على عقبيه، وعصى ربه، فأخرجه من جنته، وأوجب عليه لعنته إلى يوم الدين.

وقد اختلف المفسرون في ذلك؛ على قولين: الأول: أنه كان من الجن كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف:٥٠]، وأن الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾؛ استثناء منقطع، وقيل: متصل على التغليب، باعتبار إبليس كان من الملائكة بفعله لا بجنسه، وإنه لأصل الجن؛ كما أن آدم أصل الإنس. وهو قول الحسن البصري، والزهري، والزجَّاج، والماتريدي، والزمخشري، والفخر الرازي، وابن كثير(١).

الثاني: أنه من الملائكة، وأن الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾؛ استثناء متصل، وأنه كان من أفضل صنف من الملائكة يقال لهم: الجن. وقيل: كان من خزنة الجنة. وقيل: إن الجن سبط من الملائكة خلقوا من نار؛ وإبليس منهم، وخلق سائر الملائكة من نور. وهو قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، وابن مسعود، وابن جريج، وقتادة، والطبري، وأكثر المفسرين؛ فيما حكاه الواحدي، والبغوي(٢).

---

(١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، (١/ ١١٣)، تفسير الماتريدي، (٤/ ٣٦٨)، تفسير الماوردي (٣/ ٣١٣)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري، (١/ ١٢٧)، (٢/ ٧٢٧)، زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، (١/ ٥٤)، مفاتيح الغيب للرازي (٢/ ٤٢٨)، تفسير ابن كثير، (١/ ٢٣٠).

(٢) ينظر: تفسير الماوردي، (٣/ ٣١٤)، التفسير الوسيط، للواحدي، (١/ ١٢٠)، تفسير البغوي، (١/ ١٠٤).

والقول الأول هو الراجح، وما ذكره أصحاب القول الثاني؛ من أنه كان من أسباط الجنة، أو من خزنتها، فهي من الاسرائيليات، التي لا تقوم بها حجة، وقد صرح القرآن بأنه من الجن، وعصمة الملائكة تأبى الكفر عليهم، والاستثناء منقطع على الصحيح.

يقول الزجَّاج: قال قوم من أهل اللغة: لم يكن إبليس من الملائكة، والدليل على ذلك قوله: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾، فقيل لهؤلاء: فكيف جاز أن يستثنى منهم؟ فقالوا: إن الملائكة – وإياه – أمروا بالسجود، ودليلنا على أنه أمر معهم؛ قوله: ﴿إلا إبليس أبى﴾، فلم يأب إلا وهو مأمور، وهذا القول هو الذي نختاره، لأن إبليس كان من الجن كما قال عز وجل[1].

ويقول أبو منصور الماتريدي: قوله: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، قال الحسن: إبليس لم يكن من الملائكة، وذلك أن اللَّه – عَزَّ وَجَلَّ – وصف الملائكة جملة بالطاعة له والخضوع بقوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، وقال: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، وغيره من الآيات، ولم يكن من إبليس إلا كل سوء، **وقال أيضًا:** خلق الملائكة من نور وإبليس من نار على ما ذكر، والنار ليست من جوهر النور؛ فدل أنه ليس من الملائكة[2].

ويقول الماوردي: "ومنع قائل هذا أن يكون من الملائكة لأمرين: أحدهما: أن له ذرية؛ والملائكة لا ذرية لهم. الثاني: أن الملائكة رسل الله سبحانه ولا يجوز عليهم الكفر، وإبليس قد كفر، قال الحسن: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن؛ كما أن آدم أصل الإنس"[3].

ويقول الزمخشري: ﴿إلا إبليس﴾ استثناء متصل، لأنه كان جنياً واحداً بين أظهر الألوف من الملائكة، مغموراً بهم، فغلبوا عليه في قوله: ﴿فسجدوا﴾، ثم استثنى منهم استثناء واحدٍ منهم. ويجوز أن يجعل منقطعاً.

ويقول أيضاً: والفاء للتسبيب، جعل كونه من الجن سبباً في فسقه، لأنه لو كان ملكا كسائر من سجد لآدم لم يفسق عن أمر الله، لأن الملائكة معصومون البتة، لا يجوز عليهم ما يجوز على الجن والإنس، كما قال: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾، وهذا الكلام المعترض تعمد من الله تعالى لصيانة الملائكة عن وقوع شبهة في عصمتهم.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، (١/ ١١٣).

(٢) تفسير الماتريدي، (٤/ ٣٦٨).

(٣) تفسير الماوردي، (٣/ ٣١٣).

فما أبعد البون بين ما تعمده الله، وبين قول من ضاده، وزعم أنه كان ملكاً ورئيساً على الملائكة؛ فعصى؛ فلعن ومسخ شيطاناً، ثم وركه[١] على ابن عباس[٢].

ويقول الفخر الرازي: لما ثبت أن إبليس كان من الجن وجب أن لا يكون من الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]، وهذه الآية صريحة في الفرق بين الجن والملك[٣].

ويقول ابن كثير: والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس في خطابهم؛ لأنه –وإن لم يكن من عنصرهم –إلا أنه كان قد تشبه بهم؛ وتوسم بأفعالهم؛ فلهذا دخل في الخطاب لهم، وذم في مخالفة الأمر[٤].

المطلب الثاني: إخبار القرآن عن شبهات إبليس:

وقد حكى القرآن الكريم بعض شبهات إبليس، التي جادل بها ربه، وعارض بها حكمه، فقد برر عدم سجوده لآدم بدعوى الخيرية والعنصرية، بزعمه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين، كما قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢].

يقول مكي بن أبي طالب: "قوله: ﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾، هذا خبر من الله (عز وجل) عما قال إبليس، إذ قال له الله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾، فقال إبليس: أنا أفضل منه؛ لأني من نار، وهو من طين، ففضل عليه كفضل النار على الطين. فجهل عدو الله الحق، وأخطأ طريق النظر، إذ كان معلوماً أن من جوهر النار الخفة والطيش والاضطراب، والارتفاع والذي في جوهرها من ذلك هو الذي حمل الملعون بعد الشقاء الذي سبق له من الله (عز وجل) على الاستكبار. وكان معلوماً أن من جوهر الطين الرزانة والأناة، وذلك الذي حمل آدم عليه السلام بعدما سبق له عند ربه عز وجل على الندم على الذنب والتوبة منه"[٥].

ويقول الواحدي: وقوله: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] معناه: منعني من السجود له فضلي عليه، وأني خير منه، إذ كنت ناريا وكان طينيا، وهو قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ

(١) أي: زيَّفه على ابن عباس.
(٢) الكشاف، للزمخشري، (١/ ١٢٧)، (٢/ ٧٢٧).
(٣) مفاتيح الغيب للرازي (٢/ ٤٢٨).
(٤) تفسير ابن كثير، (١/ ٢٣٠).
(٥) الهداية الى بلوغ النهاية، لمكي بن أبي طالب، (٤/ ٢٢٩٩).

وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] قال ابن عباس: «كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس فعصى ربه، وقاس، وأول من قاس إبليس، فكفر بقياسه، فمن قاس الدين بشيء من رأيه، قرنه الله مع إبليس، وإنما كفر إبليس، لأنه قاس في مخالفة النص، وإنما يذم من القياس ما خالف النص»(١).

ويقول الزمخشري: فإن قلت: لِمَ سأله عن المانع من السجود، وقد علم ما منعه؟ قلت: للتوبيخ، ولإظهار معاندته وكفره، وكبره وافتخاره بأصله، وازدرائه بأصل آدم، وأنه خالف أمر ربه معتقدا أنه غير واجب عليه، لما رأى أن سجود الفاضل للمفضول خارج من الصواب(٢).

ومن شبهات إبليس التي ضل بها عن الحق؛ نسبة الإغواء إلى الله تعالى؛ رغم أن الغواية وقعت من إبليس بإرادته واختياره، وإن كان الله تعالى قد قدر ذلك في حقه قبل خلقه؛ والقدر سابقٌ لا سائق، ولكنه نسب الغواية إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٣٩].

وبهذه الشبهة الإبليسية تمسكت الجبرية، ولا حجة لهم فيها، لأن الفعل ينسب إلى فاعله، لا إلى من سبق علمه به؛ فأراد وقوعه إرادةً قدرية، كما أن القدر سابقٌ لا سائق، فلا حجة في ذلك لإبليس والجبرية.

يقول الفخر الرازي: "وقالوا في قوله: ﴿ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي ﴾؛ الخيبة عن الرحمة، أو الإضلال عن طريق الجنة، فنقول: كل هذا بعيد، لأنه هو الذي خيب نفسه عن الرحمة، وهو الذي أضل نفسه عن طريق الجنة، لأنه لما أقدم على الكفر باختياره فقد خيب نفسه عن الرحمة، وأضل نفسه عن طريق الجنة، فكيف يحسن إضافته إلى الله تعالى"؟!

ويقول كذلك: "فقال إبليس: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾، وهو قسم بعزة الله وسلطانه، ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[ص:٨٢]، فههنا أضاف الإغواء إلى نفسه، وهو على مذهب القدر، وقال مرة أخرى: ﴿ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي ﴾، فأضاف الإغواء إلى الله على ما هو مذهب الجبر، وهذا يدل على أنه متحير في هذه المسألة".

ويقول أيضاً: "والجواب: أن هذا كلام إبليس فلا يكون حجة، وأيضا أن كلام إبليس في هذه المسألة مضطرب جدا، فتارة يميل إلى القدر المحض، وهو قوله لأغوينهم أجمعين وأخرى إلى الجبر المحض وهو قوله رب بما أغويتني [القصص: ٣٩]" (٣).

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي، (٢/ ٣٥٣).

(٢) الكشاف للزمخشري، (٢/ ٨٩).

(٣) مفاتيح الغيب للرازي، (١٩/ ١٤٤)، (٢٦/ ٤١٥)، (١١/ ٢٢٢)..

المبحث الثالث: رد الشهرستاني على شبهات إبليس السبع.

لقد اعتمد المفسرون الذين تناولوا موضوع شبهات إبليس السبع على نقل الشهرستاني لهذه الشبهات، واستفادوا من رده عليها، ولذلك لا بد من ذكر رد الشهرستاني على هذه الشبهات.

يقول الشهرستاني؛ بعد أن ساق هذه الشبهات؛ نقلاً عن "شرح الإنجيل": "قال شارح الإنجيل: "فأوحى الله تعالى إلى الملائكة عليهم السلام، قولوا له: إنك في تسليمك الأول أني إلهك وإله الخلق غير صادق ولا مخلص، إذ لو صدقت أني إله العالمين ما احتكمت علي بلم، فأنا الله الذي لا إله إلا أنا، لا أسأل عما أفعل، والخلق مسئولون".

وهذا الذي ذكرته مذكور في التوراة، ومسطور في الإنجيل على الوجه الذي ذكرته.

وكنت برهة من الزمان أتفكر وأقول: من المعلوم الذي لا مرية فيه أن كل شبهة وقعت لبني آدم؛ فإنما وقعت من إضلال الشيطان الرجيم ووساوسه، ونشأت من شبهاته.

وإذا كانت الشبهات محصورة في سبع، عادت كبار البدع والضلالات إلى سبع، ولا يجوز أن تعدو شبهات فرق الزيغ والكفر والضلال هذه الشبهات وإن اختلفت العبارات، وتباينت الطرق، فإنها بالنسبة إلى أنواع الضلالات كالبذور، وترجع جملتها إلى إنكار الأمر بعد الاعتراف بالحق، وإلى الجنوح إلى الهوى في مقابلة النص.

ومن جادل نوحا، وهودا، وصالحا، وإبراهيم، ولوطا، وشعيبا، وموسى، وعيسى، ومحمدا؛ صلوات الله عليهم أجمعين، كلهم نسجوا على منوال اللعين الأول في إظهار شبهاته.

وحاصلها يرجع إلى دفع التكليف عن أنفسهم، وجحد أصحاب الشرائع والتكاليف بأسرهم، إذ لا فرق بين قولهم ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ وبين قوله: ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾، وعن هذا صار مفصل الخلاف، ومحز الافتراق، ما هو في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) ﴾ [الإسراء: ٩٤]، فبين أن المانع من الإيمان هو هذا المعنى، كما قال المتقدم في الأول: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]، وقال المتأخر من ذريته كما قال المتقدم: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) ﴾[الزخرف:٥٢].

وكذلك لو تعقبنا أقوال المتقدمين منهم لوجدناها مطابقة لأقوال المتأخرين، ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾، ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾.

فاللعين الأول لما حكم العقل على من لا يحكم عليه العقل، لزمه أن يجري حكم الخالق في الخلق، أو حكم الخلق في الخالق، والأول غلو، والثاني تقصير.

فثار من الشبهة الأولى مذاهب: الحلولية، والتناسخية، والمشبهة، والغلاة من الروافض، حيث غلوا في حق شخص من الأشخاص حتى وصفوه بأوصاف الإله.

وثار من الشبهة الثانية مذاهب: القدرية، والجبرية، والمجسمة، حيث قصروا في وصفه تعالى، حتى وصفوه بصفات المخلوقين.

فالمعتزلة مشبهة الأفعال، والمشبهة حلولية الصفات، وكل واحد منهم أعور بأي عينيه شاء، فإن من قال: إنما يحسن منه ما يحسن منا، ويقبح منه ما يقبح منا، فقد شبه الخالق بالخلق؛ ومن قال: يوصف الباري تعالى بما يوصف به الخلق، أو يوصف الخلق بما يوصف به الباري تعالى، فقد اعتزل عن الحق.

وسنخ القدرية طلب العلة في كل شيء، وذاك من سنخ اللعين الأول؛ إذ طلب العلة في الخلق أولاً، والحكمة في التكليف ثانياً، والفائدة في تكليف السجود لآدم عليه السلام ثالثاً.

وعنه نشأ مذهب الخوارج، إذ لا فرق بين قولهم: لا حكم إلا لله؛ ولا نحكم الرجال، وبين قوله: لا أسجد إلا لك، ﴿ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) ﴾ [الحجر:٣٣].

وبالجملة "كلا طرفي قصد الأمور ذميمٌ"؛ فالمعتزلة غلوا في التوحيد بزعمهم حتى وصلوا إلى التعطيل بنفي الصفات، والمشبهة قصروا حتى وصفوا الخالق بصفات الأجسام، والروافض غلوا في النبوة والإمامة حتى وصلوا إلى الحلول، والخوارج قصروا حتى نفوا تحكيم الرجال.

وأنت ترى أن هذه الشبهات كلها ناشئة من شبهات اللعين الأول، وتلك في الأول مصدرها، وهذه في الآخرة مظهرها، وإليه أشار التنزيل في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) ﴾[البقرة:١٦٨].

وشبه النبي صلى الله عليه وسلم كل فرقة ضالة من هذه الأمة بأمة ضالة من الأمم السالفة، فقال: «القدرية مجوس هذه الأمة»[1]. وقال: «المشبهة يهود هذه الأمة،

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٢٢٢)، رقم (٤٦٩١)، وابن أبي عاصم في السنة (١٤٩/١)، رقم (٣٣٨)، والفريابي في القدر (١٧٣/١)، رقم (٢١٦)، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «القدرية مجوس هذه الأمة: إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم». وحسنه الألباني؛ بهذا اللفظ، وأما اللفظ الذي ذكره النيسابوري، فلا أصل له في كتب الحديث المسندة.

والروافض نصاراها»[1]. وقال عليه الصلاة والسلام جملة: «لتسلكن سبل الأمم قبلكم، حذو القذة بالقذة، والنعل بالنعل، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»[2]"[3].

المبحث الرابع: رد الرازي على شبهات إبليس السبع، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: رد الرازي على شبهات إبليس السبع.

يعتبر الفخر الرازي أول من أورد شبهات إبليس السبع من المفسرين، وقد ذكرها نقلاً عن الشهرستاني؛ في كتابه "المِلَل والنِّحَل"؛ كما قدمنا، وقد أجاب الفخر الرازي عن هذه الشبهات إجابة مقتضبة، وردَّ عليها ردًّا إجمالياً مختصراً.

يقول الفخر الرازي؛ بعد ذكره شبهات إبليس السبع: "واعلم أنه لو اجتمع الأولون والآخرون من الخلائق وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه لم يجدوا عن هذه الشبهات مخلصاً، وكان الكل لازماً، أما إذا أجبنا بذلك الجواب الذي ذكره الله تعالى زالت الشبهات، واندفعت الاعتراضات، وكيف لا؟! وكما أنه سبحانه واجب الوجود في ذاته، واجب الوجود في صفاته، فهو مستغن في فاعليته عن المؤثرات والمرجحات، إذ لو افتقر لكان فقيراً لا غنياً، فهو سبحانه مقطع الحاجات، ومنتهى الرغبات، ومن عنده نيل الطلبات، وإذا كان كذلك لم تتطرق اللِّمِيَة إلى أفعاله، ولم يتوجه الاعتراض على خالقيته"[4].

المطلب الثاني: مناقشة رد الرازي على شبهات إبليس السبع.

يعتبر رد الفخر الرازي على شبهات إبليس السبع ردًّا إجمالياً مختصراً ومقتضباً، وغير مفصل، ولا يفي بالغرض، مع أنه أول من أورد هذه الشبهات من المفسرين، وكان الأولى به أن يرد عليها ردًّا مفصلاً، وشافياً وكافياً، خصوصاً أنه ممن عرف عنه البسط والتطويل والتنظير في مسائل أبسط منها بكثير، فلم يكن لائقاً بمقام وخبرة الفخر الرازي الاقتضاب والاختصار في مثل هذا الموضع، فإن هذا مما يستغرب من مفسر مثل الفخر الرازي.

---

(١) هذا حديث لا أصل له، وذكر المتقي الهندي؛ أن السلفي روى في "انتخاب حديث القراء"، عن علي رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «صنفان من أمتي لا تنالهم شفاعتي: المرجئة والقدرية، والقدرية يقولون: لا قدر، وهم مجوس هذه الأمة، والمرجئة يفرقون بين القول والعمل، وهم يهود هذه الأمة». وهو كذلك لا أصل له. ينظر: " كنز العمال"، للمتقي الهندي، (٣٦٣/١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٠٣)، رقم (٧٣٢٠)، ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٤)، رقم (٢٦٦٩)، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم، شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم» قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟!».

(٣) المِلَل والنِّحَل، للشهرستاني، (١/ ١٥-١٩).

(٤) مفاتيح الغيب للرازي، (٢/ ٤٤٧).

والأغرب من ذلك؛ المبالغة في تعظيمه لهذه الشبهات، واستصعابه لها، في مطلع رده المختصر عليها، حيث قال: "واعلم أنه لو اجتمع الأولون والآخرون من الخلائق؛ وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه؛ لم يجدوا عن هذه الشبهات مُخَلِّصاً، وكان الكل لازماً"[1]؟!!

وأما قوله: "أما إذا أجبنا بذلك الجواب الذي ذكره الله تعالى زالت الشبهات، واندفعت الاعتراضات"[2].

فالمقصود بهذا الجواب المذكور؛ ما أورده شارح "الأناجيل الأربعة".

يقول شارح "الأناجيل الأربعة"؛ بعد ذكره لشبهات إبليس السبع: "فأوحى الله تعالى إلى الملائكة عليهم السلام، قولوا له: إنك في تسليمك الأول أني إلهك وإله الخلق غير صادق ولا مخلص، إذ لو صدقت أني إله العالمين ما احتكمت علي بـ﴿لِمَ﴾، فأنا الله الذي لا إله إلا أنا، لا أسأل عما أفعل، والخلق مسئولون"[3].

وأما قوله؛ في نهاية ردِّه على هذه الشبهات: "وكما أنه سبحانه واجب الوجود في ذاته، واجب الوجود في صفاته، فهو مستغن في فاعليته عن المؤثرات والمرجحات، إذ لو افتقر لكان فقيراً لا غنياً، فهو سبحانه مقطع الحاجات، ومنتهى الرغبات، ومن عنده نيل الطلبات، وإذا كان كذلك لم تتطرق اللِّمِيَة إلى أفعاله، ولم يتوجه الاعتراض على خالقيته"[4].

فهو ردٌّ جيدٌ ووجيه، فإن الخالق لا يسأل عما يفعل، وقوله: " لم تتطرق اللِّمِيَة إلى أفعاله"؛ يعني: السؤال بـ﴿لِمَ﴾، الذي يدل على الاعتراض، فذلك لا يجوز في حق الخالق عز وجل، كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

يقول الفخر الرازي؛ في تفسير هذه الآية: "إن عمدة من أثبت لله شريكا ليست إلا طلب اللِّمِيَة في أفعال الله تعالى، وذلك لأن الثنوية والمجوس وهم الذين أثبتوا الشريك لله تعالى قالوا: رأينا في العالم خيراً وشراً، ولذة وألماً، وحياة وموتاً، وصحة وسقماً، وغنىً وفقراً، وفاعل الخير خَيِّر، وفاعل الشر شرير، ويستحيل أن يكون الفاعل الواحد خَيِّراً وشريراً معا، فلا بد من فاعلين ليكون أحدهما فاعلا للخير، والآخر فاعلا للشر.

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي(٢/ ٤٤٧).

(٢) المصدر السابق، (٢/ ٤٤٧).

(٣) ينظر: الملَل والنِّحَل، للشهرستاني، (١/ ١٤-١٦)، مفاتيح الغيب للرازي(٢/ ٤٤٦).

(٤) مفاتيح الغيب للرازي(٢/ ٤٤٧).

ويرجع حاصل هذه الشبهة إلى أن مدبر العالم لو كان واحدا لما خص هذا بالحياة والصحة والغنى، وخص ذلك بالموت والألم والفقر. فيرجع حاصله إلى طلب اللِّمِيَة في أفعال الله تعالى. فلما كان مدار أمر القائلين بالشريك على طلب اللِّمِيَة؛ لا جرم أنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الدليل على التوحيد ذكر ما هو النكتة الأصلية في الجواب عن شبهة القائلين بالشريك، لأن الترتيب الجيد في المناظرة أن يقع الابتداء بذكر الدليل المثبت للمطلوب. ثم يذكر بعده ما هو الجواب عن شبهة الخصم"[1].

وقد أحسن الزمخشري القول؛ في تفسير هذه الآية، حيث قال: "﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾، إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم، وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم، تهيباً وإجلالاً، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم؛ كان ملك الملوك؛ وربّ الأرباب؛ خالقهم ورازقهم؛ أولى بأن لا يسئل عن أفعاله، مع ما علم واستقرّ في العقول؛ من أن ما يفعله كله مفعول بدواعي الحكمة، ولا يجوز عليه الخطأ، ولا فعل القبائح"[2].

المبحث الخامس: رد النيسابوري على شبهات إبليس السبع، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: رد النيسابوري على شبهات إبليس السبع.

وممن تصدى للرد على شبهات إبليس السبع؛ نظام الأعرج النيسابوري (ت:٨٥٠هـ)، يقول نظام الأعرج النيسابوري (ت:٨٥٠هـ)؛ حيث يقول؛ بعد ذكره لشبهات إبليس السبع:

"وهذه الشبهات بالنسبة إلى أنواع الضلالات كالبذور وليس يعدوها عقائد فرق الزيغ والكفر، وإن اختلفت العبارات، وتباينت الطرق، ويرجع جملتها إلى إنكار الأمر بعد الاعتراف بالخلق، وإلى الجنوح إلى الهوى في مقابلة النص، ولا جواب عنها بالتحقيق إلا الذي ذكره الله تعالى.

فاللعين لما أن حكم العقل على من لا يحتكم عليه العقل، لزمه أن يجري حكم الخالق في الخلق، أو حكم الخلق في الخالق. فالأول غلو كالحلولية وكالغلاة من الشيعة، والثاني تقصير كالمشبهة؛ وصفوا الخالق بصفات الأجسام، وكالخوارج نفوا تحكيم الرجال، وقالوا: لا حكم إلا لله كقوله: ﴿لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ﴾ [الحجر: ٣٣]، لا أسجد إلا لك.

(١) مفاتيح الغيب للرازي(٢٢/ ١٣١).

(٢) الكشاف للزمخشري ، (٣/ ١١٠).

فالشبهات كلها ناشئة من اللعين، وتلك في الأول مصدرها، وهذه في الأخير مظهرها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وشبه النبي صلى الله عليه وسلم كل فرقة ضالة من هذه الأمة بأمة ضالة من الأمم السالفة، فقال «القدرية مجوس هذه الأمة، والمشبهة يهود هذه الأمة، والرافضة- يعني الغلاة- نصاراها»(١).

وقال صلى الله عليه وسلم: «لتسلكن سبيل الأمم قبلكم، حذو القذة بالقذة، والنعل بالنعل، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»(٢)"(٣).

المطلب الثاني: مناقشة رد النيسابوري على شبهات إبليس السبع.

يلاحظ أن ردَّ نظام الأعرج النيسابوري (ت:٨٥٠هـ)؛ على شبهات إبليس السبع؛ يعتبر ردَّاً مجملاً ومختصراً، وغير مفصل، كما أنه منقول بالنص؛ مع شيء من الاختصار؛ من ردِّ الشهرستاني؛ في كتابه "المِلَل والنِّحَل"، على هذه الشبهات.

فإن الفقرة الأولى مأخوذة من قول الشهرستاني: "وإذا كانت الشبهات محصورة في سبع، عادت كبار البدع والضلالات إلى سبع، ولا يجوز أن تعدو شبهات فرق الزيغ والكفر والضلال هذه الشبهات وإن اختلفت العبارات، وتباينت الطرق، فإنها بالنسبة إلى أنواع الضلالات كالبذور، وترجع جملتها إلى إنكار الأمر بعد الاعتراف بالحق، وإلى الجنوح إلى الهوى في مقابلة النص"(٤).

كما أن قوله: "ويرجع جملتها إلى إنكار الأمر بعد الاعتراف بالخلق"؛ تصحيف واضح لقول الشهرستاني: "وترجع جملتها إلى إنكار الأمر بعد الاعتراف بالحق".

وكذلك نجد الفقرة الثانية والثالثة منقولة باختصار؛ مع قليل من التصرف؛ من كلام الشهرستاني.

وأما استدلاله بالحديث: «القدرية مجوس هذه الأمة، والمشبهة يهود هذه الأمة، والرافضة- يعني الغلاة- نصاراها»(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٢٢٢)، رقم (٤٦٩١)، وابن أبي عاصم في السنة (١/١٤٩)، رقم (٣٣٨)، والفريابي في القدر (١/١٧٣)، رقم (٢١٦)، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «القدرية مجوس هذه الأمة: إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم». وحسنه الألباني؛ بهذا اللفظ. وأما اللفظ الذي ذكره النيسابوري، فلا أصل له في كتب الحديث المسندة، وقد دمج به بين الحديثين الذين أوردهما الشهرستاني، فيما سبق.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٠٣)، رقم (٧٣٢٠)، ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٤)، رقم (٢٦٦٩)، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم، شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم» قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟!».

(٣) تفسير النيسابوري، (١/ ٢٥٢).

(٤) المِلَل والنِّحَل، للشهرستاني، (١/ ١٥-١٦).

(٥) سبق تخريجه، والكلام عليه.

فالفقرة الأولى منه مأخوذة من حديث «القدرية مجوس هذه الأمة: إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[1]. وقد حسنه الألباني.

وأما باللفظ الذي ذكره النيسابوري، فلا أصل له في كتب الحديث المسندة، وقد دمج بين الحديثين الذين أوردهما الشهرستاني، فيما سبق، فجعلها حديثاً واحداً، وذلك منه قصورٌ واضح.

المبحث السادس: رد ابن عجيبة على شبهات إبليس السبع، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: رد ابن عجيبة على شبهات إبليس السبع.

ومن المفسرين الذين أوردوا شبهات إبليس السبع في تفسيرهم؛ ابن عجيبة (ت:١٢٢٤هـ)؛ حيث أوردها في تفسيره "البحر المديد"، نقلاً عن الفخر الرازي، كما أنه أجاد في الرد عليها، حيث يقول: "قال الشهرستاني: "اعلم أنه لو اجتمع الأولون والآخرون، وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه لم يجدوا عن هذه الشبهات تخلصاً، أما إذا أجبنا بما أجاب به الحق– سبحانه– زالت الشبهات واندفعت الاعتراضات". أهـ.

قلت: من تشمرت فكرته بنور المعرفة، وعرف أسرار الحكمة والقدرة، لم يصعب عليه مثل هذه الشبهات، وسأذكر الجواب عنها على سبيل الاختصار: أما الحكمة في إيجاد خلقه؛ فخلقهم ليعرف بهم، وفي الحديث القدسي: «كنت كنزا لم أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقا لأعرف بهم، وليظهر بهم آثار قدرته وأسرار حكمته.

وأما تعذيب الكافر بالآلام؛ فليظهر فيه مقتضى اسمه المنتقم.

أما فائدة التكليف؛ فلتقوم الحجة على العبيد، وليتميز من يستحق الإحسان ممن يستحق العذاب، فإذا عذبه لم يكن ظالما له ولا يظلم ربك أحدا، ولتظهر صورة العدل في الجملة.

وأما تكليفه بالسجود لآدم؛ فلأنه ادعى المحبة، ومقتضاها الطاعة للحبيب في كل ما يشير إليه، ولا تصعب إلا في الخضوع للجنس، أو من دونه، فأمره بالسجود لمن دونه في زعمه ليظهر كذبه في دعوى محبته.

وأما لعنه وطرده؛ فهو جزاء من كذب وعصى، وهذا الطرد كان في علمه تعالى، ولكن حكمته تعالى اقتضت ترتيب الأسباب وارتباطها بالمسببات، فكان امتناعه واعتراضه سببا لإظهار ما سبق له في علم الله، كما كانت وسوسته لآدم سببا في إظهار خروجه من الجنة؛ السابق في علم الله.

---

(١) سبق تخريجه، والكلام عليه.

وأما تمكينه من دخول الجنة؛ فليتسبب عنه هبوط آدم الذي سبق في علمه لأن الحكمة اقتضت أن لكل شيء سببا.

أما تسلطه على أولاده؛ فليكون منديلا تمسح به أوساخ الأقدار، إذ إن الكفر والإيمان والطاعة والعصيان إنما هو بمشيئة الواحد القهار، ولا فعل لغيره، لكن الحق تعالى علمنا الأدب، فخلق الشيطان والنفس والهوى مناديل، فما كان فيه كمال نسبه لله، وما كان فيه نقص نسبه للشيطان والنفس أدبا مع الحضرة.

وأما إمهاله؛ فليدوم هذا المنديل عندهم، يمسحون فيه أوساخ المقادير التي تجري عليهم إلى انقضاء وجودهم.

وقوله: (معلوم أن العالم لو كان خاليا من الشر لكان ذلك خيرا)، مغالطة لأن حكمته تعالى اقتضت وجود الضدين: الخير والشر، وبهما وقع التجلي والظهور ليظهر آثار أسمائه تعالى فإن اسمه المنتقم والقهار يقتضي وجود الشر، فيما نفهم، وليظهر انتقامه وبطشه للعيان، ومعلوم أن الملك إذا وصف بوصف جلالي أو جمالي لا يظهر شرف ذلك الاسم إلا بظهور آثاره في مملكته.

وقوله: (إنك ما عرفتني)، يقتضي أنه لو عرف الله حق معرفته لفهم أسرار هذه الأشياء التي اعترض بها على ما بيناها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الأكوان ظاهرها أغيار، وباطنها أنوار وأسرار، فمن وقف مع ظاهرها لزمه الاعتراض والإنكار، ومن نفذ إلى شهود باطنها لزمه المعرفة والإقرار، ولعل إبليس لم ير- في حال الأمر بالسجود- من آدم إلا الأغيار، ولو رأى باطنه لكان أول ساجد لله الواحد القهار"[1].

المطلب الثاني: مناقشة رد ابن عجيبة على شبهات إبليس السبع.

يلاحظ أنَّ رد ابن عجيبة (ت:١٢٢٤هـ) على شبهات إبليس السبع؛ يعتبر أبلغ ردٍّ من المفسرين؛ على هذه الشبهات، فقد ردَّ عليها ردًّا مفصلاً وبليغاً ومفيداً، بخلاف رد الفخر الرازي، والنيسابوري، وقد استفتح ردَّه عليها بنقد كلام من استعظم هذه الشبهات واستصعبها، ثم ردَّ عليها بشيء من التفصيل، والرد على كل شبهة بانفراد.

ومما يدل على بلاغة رد ابن عجيبة (ت:١٢٢٤هـ) على شبهات إبليس السبع؛ أنه استفتح ردَّه عليها بقوله: "قلت: من تشمرت فكرته بنور المعرفة، وعرف أسرار الحكمة

(١) البحر المديد لابن عجيبه، (٢/ ٢٠٣-٢٠٤).

والقدرة، لم يصعب عليه مثل هذه الشبهات، وسأذكر الجواب عنها على سبيل الاختصار"[١].

وهذا النقد يوجهه ابن عجيبة لمن استعظم هذه الشبهات واستصعبها؛ وهو حسب قوله الشهرستاني، وليس كذلك، بل الذي استعظم هذه الشبهات واستصعبها هو الفخر الرازي، كما سنبين.

يقول ابن عجيبة: "قال الشهرستاني: "اعلم أنه لو اجتمع الأولون والآخرون؛ وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه؛ لم يجدوا عن هذه الشبهات تخلصاً، أما إذا أجبنا بما أجاب به الحق– سبحانه– زالت الشبهات، واندفعت الاعتراضات". أهـ"[٢].

وقد أخطأ ابن عجيبة بعزو هذا القول للشهرستاني، وإنما هو قول الفخر الرازي[٣]، والسبب في وقوعه في هذا الخطأ؛ أنه قام بنقل كلام الشهرستاني من "تفسير الرازي"، فتوهم أنه من كلام الشهرستاني، ولو نقل كلام الشهرستاني من كتابه "المِلَل والنِّحَل"؛ لما وقع في مثل هذا الخطأ.

وأما قول ابن عجيبة في ختام رده على هذه الشبهات:

الإشارة: الأكوان ظاهرها أغيار، وباطنها أنوار وأسرار، فمن وقف مع ظاهرها لزمه الاعتراض والإنكار، ومن نفذ إلى شهود باطنها لزمه المعرفة والإقرار، ولعل إبليس لم ير– في حال الأمر بالسجود– من آدم إلا الأغيار، ولو رأى باطنه لكان أول ساجد لله الواحد القهار"[٤].

ففي كلامه هذا نظر، فإن علم الإشارة من مصطلحات الصوفية، ولا عبرة بها، فإن علوم الشرع ظاهرةٌ واضحةٌ، وليس مجرد إشارات ورموز وألغاز، كما يزعم الصوفية، والباطنية، وغيرهم.

(١) البحر المديد لابن عجيبه ، (٢/ ٢٠٣).
(٢) المصدر السابق، (٢/ ٢٠٣).
(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي(٢/ ٤٤٧).
(٤) البحر المديد، (٢/ ٢٠٣–٢٠٤).

المبحث السابع: رد ابن القيم على شبهة خلق إبليس وإنظاره، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: رد ابن القيم على شبهة خلق إبليس وإنظاره.

لقد أبدع الإمام ابن القيم (ت:٧٥١هـ) في الرد على شبهة خلق إبليس وإنظاره، فأجاب عن ذلك جواباً شاملاً ومفصلاً، وكافياً وشافياً، وبين وجوه الحكمة في ذلك، وما يترتب على ذلك من المقاصد الشرعية، والمصالح المرعية، التي يعود نفعها على العباد في الدارين، فذكر في ذلك خمسة عشر حكمة.

يقول ابن القيم: قولهم: أي حكمة في خلق إبليس وجنوده؟ ففي ذلك من الحكم مالا يحيط بتفصيله إلا الله: الأولى: أن يكمل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية؛ بمجاهدة عدو الله وحزبه، ومخالفته ومراغمته في الله، وإغاظته وإغاظة أوليائه، والاستعاذة به منه، والإلجاء إليه؛ أن يعيذهم من شره وكيده، فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم يحصل بدونه، والموقوف على الشيء لا يحصل بدونه.

الثانية: خوف الملائكة والمؤمنين من ذنبهم؛ بعد ما شاهدوا من حال إبليس ما شاهدوه؛ وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المنزلة الإبليسية يكون أقوى وأتم، ولا ريب أن الملائكة لمَّا شاهدوا ذلك حصلت لهم عبودية أخرى للرب تعالى، وخضوع آخر، وخوف آخر، كما هو المشاهد من حال عبيد الملك إذا رأوه قد أهان أحدهم الإهانة التي بلغت منه كل مبلغ، وهم يشاهدونه، فلا ريب أن خوفهم وحذرهم يكون أشد. الثالثة: أنه سبحانه جعله عبرة لمن خالف أمره، وتكبر عن طاعته، وأصر على معصيته، كما جعل ذنب أبي البشر عبرة لمن ارتكب نهيه؛ أو عصى أمره؛ ثم تاب وندم؛ ورجع إلى ربه، فابتلى أبوي الجن والإنس بالذنب، وجعل هذا الأب عبرة لمن أصر وأقام على ذنبه، وهذا الأب عبرة لمن تاب ورجع إلى ربه، فلله كم في ضمن ذلك من الحكم الباهرة، والآيات الظاهرة. الرابعة: أنه مَحَكٌّ امتحن الله به خلقه؛ ليتبين به خبيثهم من طيبهم، فإنه سبحانه خلق النوع الإنساني من الأرض؛ وفيها السهل والحزن، والطيب والخبيث، فلا بد أن يظهر فيهم ما كان في مادتهم، كما في الحديث الذي رواه الترمذي مرفوعاً: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على مثل ذلك، منهم الطيب والخبيث، والسهل والحزن، وغير ذلك»[1].

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٣/٣٢)، رقم (١٩٥٨٢)، (١٩٦٤٢)، وأبو داود في سننه (٢٢٢/٤)، رقم (٤٦٩٣)، والترمذي في سننه (٥/ ٢٠٤)، رقم (٢٠٤/٥)، رقم (٢٩٥٥)، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب، وبين ذلك». وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح".

فما كان في المادة الأصلية فهو كائن في المخلوق منها، فاقتضت الحكمة الإلهية إخراجه وظهوره، فلا بد إذاً من سبب يظهر ذلك، وكان إبليس مَحَكّاً يميز به الطيب من الخبيث، كما جعل أنبيائه ورسله مَحَكّاً لذلك التمييز، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[آل عمران :١٧٩]، فأرسله إلى المكلفين وفيهم الطيب والخبيث، فانضاف الطيب إلى الطيب والخبيث إلى الخبيث، واقتضت حكمته البالغة أن خلطهم في دار الامتحان، فإذا صاروا إلى دار القرار يميز بينهم، ويجعل لهؤلاء دارا على حدة، ولهؤلاء دارا على حدة، حكمة بالغة، وقدرة قاهرة.

الخامسة: أن يظهر كمال قدرته؛ في خلق مثل جبريل والملائكة، وإبليس والشياطين، وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه، فإنه خالق الأضداد؛ كالسماء والأرض، والضياء والظلام، والجنة والنار، والماء والنار، والحر والبرد، والطيب والخبيث.

السادسة: أن خلق أحد الضدين من كمال حسن ضده، فإن الضد إنما يظهر حسنه بضده، فلولا القبيح لم تعرف فضيلة الجميل، ولولا الفقر لم يعرف قدر الغنى.

السابعة: أنه سبحانه يحب أن يشكر بحقيقة الشكر وأنواعه، ولا ريب أن أولياءه نالوا بوجود عدو الله إبليس وجنوده؛ وامتحانهم به؛ من أنواع شكره ما لم يكن ليحصل لهم بدونه، فكم بين شكر آدم وهو في الجنة قبل أن يخرج منها؛ وبين شكره بعد أن ابتلي بعدوه؛ ثم اجتباه ربه، وتاب عليه.

الثامنة: أن المحبة والإنابة والتوكل والصبر والرضى ونحوها أحب العبودية إلى الله سبحانه، وهذه العبودية إنما تتحقق بالجهاد، وبذل النفس لله، وتقديم محبته على كل ما سواه، فالجهاد ذروة سنام العبودية، وأحبها إلى الرب سبحانه، فكان في خلق إبليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية وتوابعها، التي لا يحصى حكمها وفوائدها وما فيها من المصالح إلا الله.

التاسعة: أن في خلق من يضاد رسله ويكذبهم ويعاديهم من تمام ظهور آياته؛ وعجائب قدرته؛ ولطائف صنعه؛ ما وجوده أحب إليه؛ وأنفع لأوليائه من عدمه، كما في ظهور آية الطوفان والعصا واليد وفلق البحر وإلقاء الخليل في النار، وأضعاف أضعاف ذلك من آياته، وبراهين قدرته، وعلمه وحكمته، فلم يكن بد من وجود الأسباب التي يترتب عليها ذلك.

العاشرة: أن المادة النارية فيها الإحراق والعلو والفساد، وفيها الإشراق والإضاءة والنور، فأخرج منها سبحانه هذا وهذا، كما أن المادة الترابية الأرضية فيها الطيب

والخبيث، والسهل والحزن، والأحمر والأسود والأبيض، فأخرج منها ذلك كله، حكمة باهرة، وقدرة قاهرة، وآية دالة على أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

الحادية عشرة: أن من أسمائه: الخافض الرافع المعز المذل الحكم العدل المنتقم، وهذه الأسماء تستدعي متعلقات يظهر فيها أحكامها، كأسماء الإحسان والرزق الرحمة ونحوها، ولا بد من ظهور متعلقات هذه وهذه. الثانية عشرة: أنه سبحانه الملك التام الملك، ومن تمام ملكه عموم تصرفه، وتنوعه بالثواب والعقاب، والإكرام والإهانة، والعدل والفضل، والإعزاز والإذلال، فلا بد من وجود من يتعلق به أحد النوعين، كما أوجد من يتعلق به النوع الآخر.

الثالثة عشرة: أن من أسمائه الحكيم؛ والحكمة من صفاته سبحانه، وحكمته تستلزم وضع كل شيء موضعه الذي لا يليق به سواه، فاقتضت خلق المتضادات، وتخصيص كل واحد منها بما لا يليق به غيره، من الأحكام والصفات والخصائص، وهل تتم الحكمة إلا بذلك، فوجود هذا النوع من تمام الحكمة، كما أنه من كمال القدرة.

الرابعة عشرة: أن حمده سبحانه تامٌّ؛ كاملٌ من جميع الوجوه، فهو محمود على عدله ومنعه، وخفضه، وانتقامه وإهانته، كما هو محمود على فضله وعطائه، ورفعه وإكرامه، فلله الحمد التام الكامل على هذا وهذا، وهو يحمد نفسه على ذلك كله، ويحمده عليه ملائكته ورسله وأوليائه، ويحمده عليه أهل الموقف جميعهم، وما كان من لوازم كمال حمده وتمامه فله في خلقه وإيجاده الحكمة التامة، كما له عليه الحمد التام، فلا يجوز تعطيل حمده، كما لا يجوز تعطيل حكمته.

الخامسة عشرة: أنه سبحانه يحب أن يظهر لعباده حلمه وصبره، وأناته وسعة رحمته وجوده، فاقتضى ذلك خلق من يشرك به، ويضاده في حكمه، ويجتهد في مخالفته، ويسعى في مساخطه، بل يشبهه سبحانه، وهو مع ذلك يسوق إليه أنواع الطيبات، ويرزقه ويعافيه، ويمكن له من أسباب ما يلتذ به من أصناف النعم، ويجيب دعاءه، ويكشف عنه السوء، ويعامله من بره وإحسانه، بضد ما يعامله هو به، من كفره، وشركه، وإساءته، فكم لله في ذلك من حكمة وحمد، كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم؛ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، يجعلون له الولد؛ وهو يرزقهم ويعافيهم» [1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١١٥)، رقم (٧٣٧٨)، ومسلم في صحيحه (٤/ ٢١٦٠)، رقم (٢٨٠٤)، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يدعون له الولد، ثم يعافيهم ويرزقهم».

وفي أثر إلهي: «إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي» (١).

وفي أثر حسن: «ابن آدم ما أنصفتني، خيري إليك نازل، وشرك إليَّ صاعد، كم أتحبب إليك بالنعم، وأنا غني عنك، وكم تتبغض إلى بالمعاصي وأنت فقير إليَّ، ولا يزال الملك الكريم يعرج إلي منك بعمل قبيح»(٢).

وفي الحديث الصحيح: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون؛ فيستغفرون، فيغفر لهم»(٣).

فهو سبحانه لكمال محبته لأسمائه وصفاته اقتضى حمده وحكمته أن يخلق خلقاً يظهر فيهم أحكامها وآثارها، فلمحبته للعفو خلق من يحسن العفو عنه، ولمحبته للمغفرة خلق من يغفر له ويحلم عنه، ولمحبته لعدله وحكمته خلق من يظهر فيهم عدله وحكمته، فلولا خلق من يجري على أيديهم أنواع المعاصي والمخالفات لفاتت هذه الحكم والمصالح، وأضعافها وأضعاف أضعافها، فتبارك الله رب العالمين، وأحكم الحاكمين، ذو الحكمة البالغة، والنعم السابغة.

وإنما ذكرنا منها قطرة من بحر، وإلا فعقول البشر أعجز وأضعف وأقصر من أن تحيط بكمال حكمته؛ في شيء من خلقه، فكم حصل بسبب هذا المخلوق البغيض للرب المسخوط له من محبوب له تبارك وتعالى، يتحصل في حبه ما حصل به من مكروهه، والحكيم الباهر الحكمة هو الذي يحصل أحب الأمرين إليه باحتمال المكروه الذي يبغضه ويسخطه؛ إذا كان طريقاً إلى حصول ذلك المحبوب، ووجود الملزوم بدون لازمه محال.

فإن يكن قد حصل بعدو الله إبليس من الشرور والمعاصي ما حصل؛ فكم حصل بسبب وجوده ووجود جنوده من طاعة هي أحب إلى الله؛ وأرضى له؛ من جهاد في سبيله، وأحب شيء للحبيب أن يرى محبه يتحمل لأجله من الأذى والوصب ما يصدق محبته:

من أجلك قد جعلت خدي أرضاً ... للشامت الحسود حتى ترضى

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٩٣)، رقم (٩٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٣١٠)، رقم (٤٢٤٣)، عن أبي الدرداء، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل: «إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري». وفيه بقية بن الوليد، وهو صدوق، لكنه يدلس، وقد صرح بالسماع، وبقية رواته ثقات، فسنده حسن.

(٢) أخرجه أبو بكر الدينوري في "المجالسة وجواهر العلم" (٢/ ٣٣)، رقم (١٨١)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٤/ ٢٧)، عن وهب بن منبه؛ قال: قرأت في بعض الكتب: يقول الله تبارك وتعالى: «عبدي! ما يزال ملك كريم يصعد إلي بعمل قبيح، عبدي! أتقرب إليك بالنعم وتتمقت إلي بالمعاصي، عبدي! خيري إليك نازل وشرك إلي صاعد». وهو من الإسرائيليات، التي كان يرويها وهب بن منبه، وقد صرح فيه أنه قرأه في بعض الكتب، يعني: كتب أهل الكتاب.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٠٦)، رقم (٢٧٤٩)، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله؛ فيغفر لهم».

فلله ما أحب إليه احتمال محبيه أذى أعدائه لهم فيه وفي مرضاته، وما أنفع ذلك الأذى لهم، وما أحمدهم لعاقبته، وماذا ينالون به من كرامة حبيبهم وقربه، قرة عيونهم به، ولكن حرام على منكري محبة الرب تعالى أن يشموا لذلك رائحة، أو يدخلوا من هذا الباب، أو يذوقوا من هذا الشراب(١).

المطلب الثاني: رد ابن القيم على شبهة إبقاء إبليس وإنظاره.

وكما أبدع الإمام ابن القيم (ت:٧٥١هـ) في الرد على شبهة خلق إبليس؛ فقد أبدع كذلك؛ وأجاد وأفاد؛ في الرد على شبهة إبقاء إبليس إنظاره إلى آخر الدهر، فأجاب عن ذلك جواباً شافياً، وبين وجوه الحكمة في ذلك، وما يترتب عليه من المقاصد الشرعية، والمصالح المعتبرة، التي يعود نفعها على العباد في الدارين، فذكر في ذلك خمساً من الحِكَمِ العظيمة.

يقول ابن القيم: "قوله: أي حكمة في إبقاء إبليس إلى آخر الدهر، وإماتة الرسل؟ فكم لله في ذلك من حكمة تضيق بها الأوهام:

الأولى: أنه سبحانه لما جعله مَحَكًّا ومحنة يخرج به الطيب من الخبيث، ووليه من عدوه، اقتضت حكمته إبقاءه ليحصل الغرض المطلوب بخلقه، ولو أماته لفات ذلك الغرض، كما أن الحكمة اقتضت بقاء أعدائه الكفار في الأرض إلى آخر الدهر، ولو أهلكهم البتة لتعطلت الحكم الكثيرة في إبقائهم، فكما اقتضت حكمته امتحان أبي البشر؛ اقتضت امتحان أولاده من بعده به، فتحصل السعادة لمن خالفه وعاداه، وينحاز إليه من وافقه ووالاه.

الثانية: أنه لما سبق حلمه وحكمته أنه لا نصيب له في الآخرة؛ وقد سبق له طاعة وعبادة؛ جزاه بها في الدنيا بأن أعطاه البقاء فيها إلى آخر الدهر، فإنه سبحانه لا يظلم أحدا حسنة عملها، فأما المؤمن فيجزيه بحسناته في الدنيا وفي الآخرة، وأما الكافر فيجزيه بحسنات ما عمل في الدنيا، فإذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له شيء. كما ثبت هذا المعنى في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم(٢).

الثالثة: أن إبقاءه لم يكن كرامة في حقه، فإنه لو مات كان خيرا له، وأخف لعذابه، وأقل لشره، ولكن لما غلظ ذنبه بالإصرار على المعصية؛ ومخاصمة من ينبغي التسليم لحكمه؛ والقدح في حكمته؛ والخلف على اقتطاع عباده؛ وصدهم عن عبوديته؛ كانت

---

(١) ينظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم، (ص: ٢٣٦-٢٣٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٦٢)، رقم (٢٨٠٨)، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة، يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يجزى بها».

عقوبة الذنب أعظم عقوبة، بحسب تغلظه، فأبقي في الدنيا، وأملى له ليزداد هذا إثماً على إثم ذلك الذنب، فيستوجب العقوبة التي لا تصلح لغيره، فيكون رأس أهل الشر في العقوبة، كما كان رأسهم في الشر والكفر.

الرابعة: أنه قال في مخاصمته لربه: ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) ﴾[الإسراء:٦٢]، وعلم سبحانه أن في الذرية من لا يصلح لمساكنته في داره، ولا يصلح إلا لما يصلح له الشوك والروث؛ أبقاه له، وقال له بلسان القدر: هؤلاء أصحابك وأوليائك فاجلس في انتظارهم، وكلما مر بك واحد منهم فشأنك به، فلو صلح لي لما ملكتك منه، فإني أتولى الصالحين، وهم الذي يصلحون لي، وأنت ولي المجرمين، الذين غنوا عن موالاتي وابتغاء مرضاتي، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾.

الخامسة: أن إماتة الأنبياء والمرسلين؛ لم تكن لهوانهم عليه، ولكن ليصلوا إلى محل كرامته، ويستريحوا من نكد الدنيا وتعبها، ومقاساة أعدائهم وأتباعهم، وليجيء الرسل بعدهم، ويرى رسولاً بعد رسول، فإماتتهم أصلح لهم وللأمة، أما هم فلراحتهم من الدنيا، ولحوقهم بالرفيق الأعلى في أكمل لذة وسرور، ولا سيما وقد خيرهم ربهم بين البقاء في الدنيا واللحاق به، وأما الأمم فيعلم أنهم لم يطيعوهم في حياتهم خاصة، بل أطاعوهم بعد مماتهم كما أطاعوهم في حياتهم، وأن أتباعهم لم يكونوا يعبدونهم، بل يعبدون الله بأمرهم ونهيهم، والله هو الحي الذي لا يموت، فكم في إماتتهم من حكمة ومصلحة لهم وللأمم.

هذا وهم بشر، ولم يخلق الله البشر في الدنيا على خلقة قابلة للدوام، بل جعلهم خلائف في الأرض، يخلف بعضهم بعضا، فلو أبقاهم لفاتت المصلحة والحكمة في جعلهم خلائف، ولضاقت بهم الأرض، فالموت كمال لكل مؤمن، ولولا الموت لما طاب العيش في الدنيا، ولا الهناء لأهلها بها، فالحكمة في الموت كالحكمة في الحياة"[1].

(١) ينظر: شفاء العليل، لابن القيم، (ص: ٢٤٠-٢٤١).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتيسيره تتحقق الأمنيات، أحمده سبحانه وأشكره، وأثني عليه الخير كله، وأصلي وأسلم على نبيه ومصطفاه نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد :

فقد وصلت -بحمد الله ومنته- إلى جملة من النتائج، يمكن إبراز أهمها فيما يلي:

١) أن أقدم المصادر التي أوردت "شبهات إبليس السبع"؛ هي الكتب المقدسة لدى أهل الكتاب: "التوراة"، و"الإنجيل" أو ما يعرف اليوم بـ"العهد القديم"، و"العهد الجديد".

٢) أن أول من أورد هذه الشبهات من علماء المسلمين؛ الشهرستاني (ت: ٥٤٨هـ)؛ في كتابه "المِلَل والنِّحَل"، نقلاً عن شرح "الأناجيل الأربعة"، ثم نقلها عنه الفخر الرازي (ت:٦٠٦هـ)؛ في "تفسيره"، ثم نقلها عنهما بعض المفسرين.

٣) أن الشبهات الإبليسية السبع لها تأثير كبير في ظهور الانحرافات الفكرية في أكثر الأديان والملل، قديماً وحديثاً، مما يوجب التوقف عندها؛ ومناقشتها؛ والرد عليها.

٤) اهتمام علماء التفسير البالغ بمناقشة الشبهات والرد عليها، وعدم الاقتصار على التفسير المجرد للقرآن الكريم، كما فعل الرازي، والنيسابوري، وابن عجيبة، في ردهم على هذه الشبهات.

٥) خطورة هذه الشبهات، وتأثيرها في ظهور الانحرافات الفكرية، والشبهات العقدية، مما يدعو الباحثين والدارسين للاهتمام بها، بمزيد من البحث والدراسة.

٦) أن ردود كلٍّ من: الرازي، والنيسابوري، على شبهات إبليس السبع؛ كانت مقتضبة ومختصرة، وأن رد ابن عجيبة عليها كان شاملاً ومفصلاً.

٧) إسهام سائر علماء المسلمين؛ في التصدي للرد على شبهات إبليس السبع؛ أمثال: الشهرستاني، وابن القيم، لما لها من الأهمية والخطورة.

٨) أنَّ هذا الموضوع الهام رغم خطورته يبحث ويناقش للمرة الأولى، حيث أنه لم يسبق دراسته من قبل بشكل مستقل.

وهناك بعض التوصيات والاقتراحات والتي أجملها فيما يلي:

١) التوصية بطباعة الرسائل العلمية والكتب التي ألفت الرد على الشبهات في القرآن أو السنة .

٢) التوصية بطرح مشروع لرسائل جامعية متخصصة في الدفاع عن القرآن الكريم والسنة.

٣) تكوين لجان متخصصة من العلماء والمفكرين في الدول الإسلامية لرصد الشبهات المثارة حول القرآن والتصدي لها، ونقضها والرد عليها رداً عليماً مؤصلاً.

فهرس المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم (جل منزله وعلا).**

١) **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، أبو العباس أحمد بن محمد ابن عجيبة الحسني (المتوفى: ١٢٢٤هـ)، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، الطبعة: ١٤١٩ هـ.

٢) **تفسير الرازي (مفاتيح الغيب)**، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت:٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٣) **تفسير القرآن العظيم** ، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، دار الفكر، بيروت – ١٤١٢ هـ .

٤) **تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة):** محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

٥) **تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل آي القرآن)**، محمد بن جرير الطبري ٣١٠هـ، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م.

٦) **الجامع الصحيح** ، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري ٢٥٦هـ، دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.

٧) **الجامع الصحيح** ، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ٢٦١هـ، دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٨) **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، ط/ دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٥ هـ.

٩) **زاد المسير في علم التفسير**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ.

١٠) **السنة**، أبو بكر بن أبي عاصم الشيباني (المتوفى: ٢٨٧هـ)، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ.

١١) **سنن الترمذي**، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي المتوفى سنة ٢٧٩هـ، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١٢) **سنن أبي داود**، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥هـ، دار الكتاب العربي – بيروت.

١٣) **سنن ابن ماجه**، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني المتوفى سنة ٢٧٣هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر – بيروت.
١٤) **سنن النسائي**، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي المتوفى سنة ٣٠٣هـ، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.
١٥) **شعب الإيمان**، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠ هـ.
١٦) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم (ت:٧٥١هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨م.
١٧) **غرائب القرآن ورغائب الفرقان (تفسير النيسابوري)**، نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري (ت:٨٥٠هـ)، طبعة شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١ ، ١٣٨٤ هـ.
١٨) **القدر**، أبو بكر جعفر بن محمد الفِرْيابِي (المتوفى: ٣٠١هـ)، أضواء السلف – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.
١٩) **الكشاف**، أبو القاسم محمود بن عمرو جار الله الزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.
٢٠) **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، علاء الدين علي بن حسام الدين القادري الشهير بالمتقي الهندي (المتوفى: ٩٧٥هـ)، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٢١) **المجالسة وجواهر العلم**، أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري (المتوفى : ٣٣٣هـ)، دار ابن حزم (بيروت – لبنان)، ١٤١٩هـ.
٢٢) **مسند أحمد بن حنبل**، أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني المتوفى سنة ٢٤١هـ، مؤسسة قرطبة – القاهرة.
٢٣) **مسند الشاميين**، سليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني المتوفى سنة ٣٦٠هـ، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٤م.
٢٤) **معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)**، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٠هـ)، دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ.

٢٥) **معاني القرآن وإعرابه**، أبو إسحاق الزجاج ٣١١هـ، عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

٢٦) **المِلَل والنِّحَل**. محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، (ط٢)، صيدا – بيروت، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

٢٧) **النكت والعيون (تفسير الماوردي)**، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٨) **الهداية الى بلوغ النهاية**، لمكي بن أبي طالب القيسي (المتوفى: ٤٣٧هـ)، طبعة مجموعة بحوث الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

٢٩) **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، علي بن أحمد بن محمد الواحدي، (٤٦٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤م.